الكلام على النظم والنثر فى عصر الجاهلية

النظـــــم

كان الشاعر العربى يقول الشعر بالبديهة لحدّة خاطره فيرتجل القول ارتجالا وقد يتعمد القول فى بعض الأحيان ويُجهد خاطره فيه فقد كان لزهير بن أبى سُلْمَى قصائد لُقّبَت بالحَوْلِيّات كان ينظم الواحدة منها ثم يُهَذّبها بنفسه ثم يَعْرِضها على أصحابه فلا يُشْهرها حتى يأتى عليها حَوْل

وقد وَلَجَ الشعراء فى عصر الجاهلية أبوابا كثيرة من الشعر فوصَفوا ومَدَحوا وهَجَوا ونَفَروا ودوّنوا الاخبار وضربوا الامثال ورغّبوا وأرهبوا ولم يتركوا شيأ وقع تحت حسّهم حتى تناولوه بمقالهم فأجادوا وأبدعوا مع سهولة فى اللفظ ومتانة فى التركيب وتَوَخّ للحقيقة وبُعْد عن الغُلُوّ .

ولقد تركوا فيما تركوه من أشعارهم ما يمكن أن يستخرج منه بيان لعاداتهم وسائر أحوالهـم ومع أن منهم من سكن البادية على خشونة فى العيش قد أتوا فى كلامهـم بالعجب العجاب من السهولة والانسجام ورائع الحكم ودقيق الشعور والوِجْدَان كما ترى ذلك فيما أوردناه فى هذا الكتاب من كلامهم وجَيّد أشعارهم وكان الشعر ديوان علمهم ومستودع حكمتهم والضابط لأيامهم وقيد كلامهم والحاكم لهم والشاهد عليهم وله من

نفوسهم أسمى مكانة وأرفع قدر ومما يدلك على علو قدر الشعر أن القبيلة من العرب كانت اذا نبغ فيها شاعر أتتها القبائل فهنأتها بذلك وصنعت الأطعمة واجتمعت النساء يلعبن كما يصنعن بالأفراح ويباشروا به لأنه يحمي أعراضهم ويدفع عن أحسابهم ويخلد مآثرهم ويشيد بذكرهم

وكان للشعر تأثير في النفوس وسلطة عليها حتى كانت تحتفي بأسه الامراء وتتحاماه الكبراء وطالما وضع قوما ورفع آخرين . قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين ومما يدل على قدر الشعر عندهم بكاء سيد بني مازن مُحارق بن شهاب حين أتاه محمد بن المُكعبر العنبري الشاعر فقال له ان بني يربوع قد أغاروا على إبلي فاسمع لي فيها فقال كيف وأنت جار بني ودان فلما ولى عنه محمد حزن مُحارق وبكى حتى بل لحيته فقالت له ابنته مايبكيك فقال وكيف لا أبكي وقد استغاثني شاعر من شعراء العرب فلم أغثه والله لئن هجاني ليقتضنني قوله ولئن كف عني ليقتلنني شُكره . ثم نهض فصاح في بني مازن فردت عليه إبله

ومما رواه صاحب الأغاني وغيره أن أعشى قيس كان يأتي سُوق عُكاظ كل عام فيجاذبه الناس في الطريق الضيافة طمعا في مدحه اياهم والتنويه بهم في عكاظ فمر يوما ببني كلاب وكان فيهم رجل يقال له

المحلّق وكان مثّنانا مُملقا له ثمانى بنات لا يَخْطُبهنّ أحد لمكان أبيهنّ من الفقر وخمول الذكر فقالت له امرأته ما يمنعك من التعرّض لهـذا الشاعر واكرامه فما رأيت أحدا أكرمه الا وأكسبه خيرا فقال ويحكِ ماعنـدى الا ناقتى فقالت يُخْلفها اللهُ عليكَ . فتلقّاه قبل أن يسبقه أحد من الناس وكان الأعشى كفيفا يقوده ابنُه فأخذ المُحلّقُ بخطام الناقة فقال الأعشى من هـذا الذى غلبنا على خطام ناقتنا فقيل المحلق قال شريف كريم ثم قال لابنه خَلِّه يقتادها فاقتادها الى منزله وأكرمه ونحـر له الناقة وجعلت البنات يدرن حوله ويبالغن فى خدمته فقال ماهذه الجوارى حولى فقال المحلّق بنات أخيكَ وهُنّ ثمان نصيبهنّ قليل فقال الأعشى هل لكَ حاجة فقال تُشيد بذكرى فلعلى أُشْهَر فخُطب بَنَاتى فنهض الأعشى من عنده ولم يقل شيأ فلما وافى عكاظ أنشد قصيدته التى أنشأها فى مَدْحه وهى نَيّف وأربعون بيتا وفيها يقول

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة * الى ضـوء نار باليَفاع تُحَرّقُ

تُشَبّ لمَقْرورَيْن يصطليانها * وبات على النار الندى والمُحلّقُ

فسارت القصيدَة وشاعت فى العرب ولم تمض سـنة على المحلق حتى زَوّج بناته ويسرت حاله اه

وكان لشُعراء العرب آنفة من التكسُّب بالشعر حتى نشأ النابغة الذُّبياني قُبيل الاسلام فمدح الملوكَ وقبل الصلة على الشعر وجاء بعده الأعشى وقد أدرك الاسلام ولم يُسْلم فجعل الشعر متجرا وانتجع به أقاصي البلاد وقصد ملك العجم فأثابه وأجزل عطيته . وكان زُهير ابن أبي سُلمى ممن أفاد بشعره عدائحه لهرم بن سنان . على أن شيأ من ذلك لم يضَعْ من قَدْر الشعر ولم يَحُطّ من قيمته لقلة من كانوا يتكسبون بشعرهم في ذلك العصر

ومدة العصر الجاهلي نحو مائة وخمسون سنة ومن أشهر ماقيل فيه من الشعر المعلّقات السبع وهي سبع قصائد من أجود الشعر العربي وأحسنه أسلوبا ويقال انها كتبت بالذهب على الحرير وعلقت على الكعبة تنويها لها وتعظيما لشأنها وكان العرب يتناشدونها في مجتمعاتهم مترنّمين بما فيها من محاسن الشيم مُعجبين بما اشتملت عليه من المعاني الشريفة والتشبيه الحسن البديع وحسن الوصف ودقة المعنى وغير ذلك من المحاسن

وأصحابها هم امرؤ القيس وطرفة بن العبد وزهير وعمرو بن كلثوم ولبيد وعنترة والحارث بن حلزة وكلهم من فحول شعراء الجاهلية وممن اشتهر في العصر الجاهلي من الشعراء غير أصحاب المعلقات وكان من

كفحول الشعراء النابغـة الذُّبْيَانى والأعشى والمُهَلْهِل وعَبِيد بن الأبْرص والسَّمَوْءل والشَّنْفَرى ودُرَيد بن الصِّمّة وأَوْس بن حَجَر وحاتم الطائى

النـــــثر

قد أثر عن العرب من منثورهم فى العصر الجاهلى بعضُ الامثـال والحِكَم والخُطَب والوصايا مما عَلِق بالضمير لحسنه وحَرَصت عليه النفس لنفاسته

(الامثال) جمع مَثَـل وهو جملة من القول مقتطعـة من أصلها أو مرسلة بذاتها فَتُنْقَل عما وردت فيه الى مايصح قصده بها من غير تغيـير يلحقها فى لفظها والعرب من أكثر الأمم أمثالا للحكمة المُودَعة فى نفوسهم ولفصاحة ألسنتهم وميلهم الى الايجاز فى القول . وقد أُلفت مجموعات للامثال وطُبِع بعضها ومن ذلك مجموعة للميدانى جمع فيها أكثر من ستة آلاف مثل

(الحِكَم) جمع حِكْمة وهى الكلام المعقول الموافق للحق المصون عن الحشو والعرب من أكثر الأمم ايرادا للحكمة فى عبارات حسنة الأساليب متينـــة التركيب كلها من جوامع الكلم صادرة عن خبرة ودراية وصفاء نفس

(الخُطَب والوصايا) الخطب جمع خطبة والوصايا جمع وصيّة وكُلٌّ من الخطبة والوصـية يُرَادُ به جملة من القول يقصد فيها الى الترغيب فيما

ينفع الناس من أمور معاشهم ومعادهم والتنفير مما يضرهم وقد تشتمل على الفخر والمدح ونحو ذلك

والفرق بين الخطب والوصايا أن الخطب تكون فى المَشَاهد والمجامع والايام والمواسم والتفاخر والتشاجر ولدى الكُبَراء والأُمَراء ومن الوفود فى أمرٍ مُهِمّ وخَطْب مُلِمّ . وأما الوصايا فانها تكون لقوم مخصوصين فى زمن مخصوص على شئ مخصوص وكثيرا ما كانت تصدر من شخص لعشيرته أو سيد لقبيلته عند حلول مرض أو محاولة نُقْلة أو ماشابه ذلك وسيرد عليك فى هـذا الكتاب أمثـلة لكل ماتقدّم تُفَصّل لك مُجْمَلَه وتُوَضّح لك مبهمه

السبب الذى دعا العرب الى الخَطَابة وما يتعلق بذلك(١)

لايخفى ما كانت عليـه العرب أيام جاهليتهم من الأنفَة والتفـاخر بالأحساب والأنساب والمحافظة على شرفهم وعلو مجدهم وسوددهم حتى حدث ماحدث بينهم من الوقائع العظيمة ولا شك أن كل قوم يتفق لهم مثل ذلك هم أحوج الناس الى مايستنهض هممهم ويوقظ أعينهم ويقيم قاعدهم ويشجع جَبَانهم ويشدّ جَنَانَهم ويثير أشجانهم ويستوقد نيرانهم صيانة لعزهم أن يُسْتَهان ولشوكتهم أن تُسْتَلان وتَشَفِّيا بأخْذ

(١) بلوغ الارب فى أحوال العرب

الثار وتحرزا من عار الغلبة وذُلّ الدَّمار . وكل ذلك من مقاصد الخطب والوصايا فكانوا أحوجَ اليها بعد الشعر لتخليد مآثرهم وتأييد مفاخرهم

ولقد كان لكل قبيلة من قبائلهم خطيب كما كان لكل قبيلة شاعر على ماذكره الجاحظ فى كتاب البيان . وقد ألف فى خطبهم كتب كثيرة وذكر الجاحظ فى البيان والتبيين نبـذة صالحة من خطب الجاهليـة والاسلام وكذا ابن عبد ربه فى العقد الفريد

وكان للعرب اعتناء بالخطيب فى جاهليتهم وللخطباء عناية بخطبهم فكانوا يتخيرون لها أجزل المعانى وينتخبون لها أحسن الألفاظ تحصيلا لغرضهم ونيلا لمقصـدهم فان الألفاظ الرائقـة والمعـانى الجزلة أوقع فى النفوس وأشدّ تأثيرا فى القلوب ولذلك ورد انّ من البيان لسِحْرا . والأُذُن للكلام البليغ أصْغَى وأوْعَى والترغيب فى العـاجل والارهـاب فى الآجل اللذان هما من أهم مقاصـد الخَطابة ومطالبها العالية ان لم يكونا بعبارات تَخْلُب القلوب وتأخذ بمجامعها فلا تأثير فيهـا ولا فائدة منهـــا

ومن عاداتهم فى الخطابة أن الخطيب اذا تفاخر أو تنافر أو تشاجر رفع يده ووضعها وأذى كثيرا من مقاصده بحركات يده فذلك أعون له على غرضه وأرهب للسامعين له وأوجب لتيقظهم

ومن عاداتهم فيها أخذ المخصرة بأيديهم وهى مايتوكأ عليه كالعصا ونحوها وكانوا يعتمدون على الارض بالعصى ويشيرون بالعصا والقنا وكانوا يستحسنون فى الخطيب أن يكون جهير الصوت ولذا مدحوا سعة الفم وذموا صغره

ومن فحول خطباء الجاهلية قُسّ بن ساعدة الايادى وأكثم بن صَيْفى التميمى وذُو الاصْبَع العَدْوانى وعمرو بن كُلْثوم التَّغْلبى وقيس بن زهير

أسواق العرب فى الجاهلية

واهتداؤهم الى تهذيب لغتهم وتوحيدها وعنايتهم بذلك

كان للعرب أسواق يقيمونها فى أوقات معينة وينتقلون من بعضها الى بعض للبيع والشراء وكان يحضرها العرب بما عندهم من المآثر والمفاخر ويتناشدون الاشعار ويلقون الخطب . وكانوا يتحاكمون الى قضاة نصبوا أنفسهم لنقد الشعر وبيان غثه من سمينه وتفضيل شاعر على آخر فكانوا يُفْتَنُون من سهلت عبارته وكان لها النصيب الأوفر من الفصاحة وحسن البيان مع التحرز من العيب والابتعاد عن النقص ويتخيرون من لغات العرب ماحلا فى الذوق وخف على السمع . فكانت هـذه الاسواق أندية علمية ومجتمعات لغوية أدبية اهتدى بها العرب الى تهذيب لغتهم لفظا وأسلوبا وجعل لغة

الشـعر والخَطَابة لغـة واحدة بين جميع القبائل باذلين فى ذلك جهد المستطيع منها مَجَنَّة وذو المجاز وعُكَاظ

وأشهر هـذه الأسواق سُوق عُكَاظ مِنْ عَكَظه يَعْكظه عَكْظا عَـرَكه وهى موسم للعرب من أعظم مواسمهم وعكاظ نخل فى واد بين نخـلة والطائف من بلاد الحجاز وبينـه وبين الطائف عشرة أميال وكانوا يتبايعون فى هذه السوق ويتعاكظون ويتفاخرون ويتحاجُّون وينشد الشعراء ماتجدّد لهم وقد كثر ذلك فى أشعارهم كقول حسان

سأنشُر إنْ حَييت لهم كلاما * يُنَشَّر فى المجَنَّـة مَعْ عُكاظ

وفيها كان يخطب كل خطيب مِصْقَع . وكان كل شريف انما يحضر سوق بلده إلا سوق عكاظ فانهم كانوا يتوافَوْن بهـا من كل جهة ومن كان له أسير سَعَى فى فدائه ومن كانت له حكومة ارتفع الى الذى يقوم بأمر الحكومة

وكانت تقوم هـذه السوق من أوّل ذى القَعْدة الى العشرين منـه على المشهور واتُّخذت عكاظ سُوقا بعد عام الفيل بخمس عشرة سـنة وتُركت بعد أن نهبها الخوارج سنة تسع وعشرين ومائة

ولعكاظ فضل على اللغة العربية فى العصر الجاهلى اذ لولاها لأصبحت لغـة العرب لغـات لايتفاهم أصحابها وانفصلت كل منهـا عن الاخرى

وقتا مّا ذلك لأن لغات القبائل العربيـة كان بينها تفاوت فى اللهجة والاسـلوب واللفظ وكان هـذا التفاوت يقل ويكثر تبعـا لضعف وقوّ العلاقات التى ترتبط بها قبيلتان أو عدّة قبائل وتبعا لاختلاف عوامل المكان والزمان والاجتماع التى يؤثر اختلافها أعظم تأثير فى اللغـة . فلما عَظُم شأن عكاظ وأمّها الشعراء والخطباء من كل مكان كان معظم همهم انتقاء الألفاظ الفصيحة المشهورة عنـد أكثر القبائل لاسـيما قريش طمعا فى أن تنتشر أقوالهم بين العرب كافة قال قتـادة كانت قُرَيش تَجْتَبِى أى تختار أفضلَ لغات العرب حتى صار أفضل لغاتها لغتها فنزل القرآن الكريم بها ولو اتبع كل شاعر أو خطيب لهجـة قومه ولغـة قبيلته وحدها لم يجـد من يستحسنها غيرهم ووقفت عن الشهرة ولم تروها القبائل الأخرى فيفوته الافتخار بها

وبذلك كان الشـعراء والخطبـاء يبثون وحدة اللغـة فى أشعارهم وخطبهم فيما بين القبائل المختلفة متبعين فى ذلك لغـة قريش غالبا . وانما اختاروا هذه اللغة على غيرها لما كان لها من السيادة على لغات قبائل الحجاز ونجد ولما كان لقريش من رفيع القدر وعلو المنزلة بين جميع العرب

تاريخ الكتابة والخط عند العرب

كان الغالب على العرب فى بعض عصر الجاهلية الأمّيّة والذين يعرفون الكتابة والقراءة منهم نفر قليل جدًا . والزمن الذى ابتدئ فيه باستعمال الخط العربى قديم غير معين . وأوّل من كتب بالعربيـة على أشهر الأقوال أهل اليمن قوم هود عليه السلام وكانوا يسمون خطّهم بالمُسْنَد وهو الخطّ الحِمْيَرى وكانوا يكتبونه حروفا منفصلة ويمنعون العامة من تعلمه حتى تعلمه ثلاثة نفر من طيئ فتصرفوا فيه وسموه بخط الجزم لانه اقتطع من خط حمير ثم علّموه أهل الأنْبار ومن الانبار انتشرت الكتابة العربية فأخذها عنهم أهـل الحيرة وتداولوها ولما قدم الحيرة حَرْب بن أُمَيَّـة القُرَشى جدّ معاوية بن أبى سفيان نقل هذه الكتابة من الحيرة الى الحجاز بعد أن عاد الى مكة والصحيح أن أهل الحجاز انما لُقّنُوا الكتابة من الحيرة ولُقّنها أهل الحيرة من التبابعة وحِمْيَر كما ذكره ابن خلدون قال وقد كان الخط العربى بالغا مبالغه من الاتقان والاحكام والجودة فى دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والتَرَف وانتقل منها الى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نُسَبَاء التبابعـة والمجددين لملك العرب بأرض العـــراق

العلوم والمعـارف عنـــــد العرب

فى عصر الجاهلية

العرب غير البـائدة يرجعون الى أصلين وهما قحطان وعدنان . أما قحطان وهم عرب اليمن فقد كانوا على جانب عظيم من المدنية والحضارة والغـالب منهم سكن البـلاد المعمورة وبنوا القصور وشـيدوا الحصون وكانت لهم مدن عظيمة قد شرح حالها أهـل الاخبار شرحا وافيـا . وكان لهم ملوك وأقيال دوخوا البـلاد وأوغلوا فى الارض واسـتولوا على كثـير من أقطارهـا شرقا وغربا . كل ذلك يدل على وقوفهم على العلوم التى لابد منها فى حفظ النظام وعليها مدار المعاش وسياسة المدن وتدبير المنازل والجيوش وتأسيس الامصار واجراء المياه مما لايمكن وجوده مع الجهل وعدم المعرفة

وأما بنو عدنان ومن جاورهم من عرب اليمن بعد أن فرقتهم حادثة سيل العرم فقد كانوا على شريعة موروثة وعلم منزل وهو ما جاء به ابراهيم واسمعيل عليهما السلام الى أن اختل أمرهم وتغير حالهم فاشتغلوا بما سمحت به قرائحهم من الشعر والخطب أو ما حفظوه من أنسابهم وأيامهم أو ما احتاجوا اليـه فى دنياهم من الأنواء والنجوم أو من الحـروب ونحو ذلك . وكان لهم حظ وافر من معرفة الطب المبنى فى غالب الامر

على التجربة وكذلك التاريخ فقد تضمن شعرهم شيئا كثيرا منه . غير أن تدوين شئ من ذلك فى عصر الجاهلين لم يكن لغلبة **الأمية** والاعتماد على الذاكرة وقد نقل مانقل منه بالرواية والسماع . وكان يقال لهم الأمة الأمية قال تعالى (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) اه بتصرف من كتاب بلوغ الارب فى أحوال العرب

وقال ابن خلدون وياقوت ما كان فى القديم لأحد من الأمم فى الخليقة ما كان للعرب من المُلْك ودُوَل عاد وثمود والعمالقة وحِمْيَر والتَّبابعة شاهدة بذلك وقد ملكوا مصر والروم واستعملوا عليها أحد القياصرة وتوغلوا فى الهند والصين وبلاد الفرس والترك. والتُّبَّت وأخذوا الأَتاوَى من القسطنطينية وذكروا ذلك فى أشعارهم وغير ذلك مما لانطيل به ثم دولة مضر فى الاسلام بنى أمية وبنى العباس

حالة اللغة العربية وآدابها

من ابتداء ظهور الاسلام الى الدولة العباسية

جاء الاسلام ولغات العرب ولهجاتهم متشعبة غير أن لغتين منها كانت لهما السيادة على سائرها . الاولى لغة قريش وكانت فى مكة وما جاورها . والثانية لغة حِمْيَر وكانت فى بلاد اليمن

وقد تقدم فى الكلام على عكاظ أن الشعراء والخطباء كانوا يؤثرون لغة قريش على سائر لغات العرب ويبثونها بين القبائل كافة فى خطبهم وأشعارهم وكان ذلك قبل ابتداء نزول القرآن الكريم بنحو خمس وعشرين سنة

ولما كان القرآن الحكيم منزلا بلغة قريش أصبحت السيادة لها على لغة حمير وغلبت عليها وعلى جميع لغات العرب ودان لها الخطباء والشعراء وسائر المتكلمين بالعربية وصارت بعد ذلك هى اللغة المتداولة فى المكاتبات والمؤلفات فى جميع العلوم الى يومنا هذا والفضل فى بقائها وحفظها انما يرجع الى الكتاب المجيد وحده ولما فتح المسلمون بلاد الشام والعراق والفرس ومصر وافريقية والمغرب وغير ذلك من البلاد انتشرت اللغة العربية بانتشار العرب وتغلبت على لغاتها الاصلية ولكنها لم تعم جميع الناس دفعة واحدة شأن كل لغة جديدة فى مبدأ انتشارها

ولقد كان هذا الانتشار سببا لظهور اللحن على لسان من تكلم بالعربية من غير أهلها وكذا على لسان بعض أهلها من المخالطين لهؤلاء . وهذا أمر كان متوقع الحصول لأن اللغة ملكة صناعية تؤخذ مفرداتها وأساليبها بالتلقين

فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم فى مخاطبتهم وكيفية تعبيرهم عن

مقاصـدهم كما يسمع الصـبي استعمال المفردات فى معانيها فيُلقّنها أوّلا ثم يسمع التراكيب بعـدها فيلقنها كذلك ثم لايزال سماعهم يتجـدد فى كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر الى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم . فلما خالط العرب غيرهم صار الناشئ منهم يسمع فى العبارة عن المقاصـد كيفيات أخرى غير الكيفيات التى كانت للعرب فيعـبر بها عن مقصوده ويسمع كيفيات العرب أيضا فاختلط عليـه الأمر وأخذ من هـذه وهذه . ولقد وفّى ابن خلدون فى مقدمته هذا المقام حقه من البيان

وانك لترى اليوم من المتكلمين بلغتنا من الافرنج مايوضح لك ذلك من لهجتهم وأساليب عباراتهـم التى هى فى الحقيقة أساليب لغتهـم الاصلية صبغوها بصبغة عربية

ولقد ظهر شئ من اللحن فى كلام الموالى والمتعرّبين من أول عهد الاسلام . من ذلك ماروى أن رجلا لحن بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم فقال أرْشدوا أخاكم فقد ضل . وكتب كاتب لأبى موسى الاشعرى الى عمر رضى الله عنـه فلحن فـكتب عمر الى أبى موسى أن اضرب كاتبك سوطا واحدا . غير أن اللغـة فى العصر الاول كانت ملكتها مستحكمة وما ظهر من اللحن كان يسـيرا . وفى أوائل الدولة الأموية

أخذ اللحن يفشو و ينتشر وانتقل من الاعاجم الى العرب أنفسهم من أبناء الخلفاء والامراء والخاصة والعامّة . ومن شواهد ذلك أن زيادا لمّا أُوفد ابنَه عُبَيد الله الى معاوية كتب اليه معاوية انّ ابنك كما وَصَفْتَ ولكن قَوِّمْ لسانَه . وجاء رجل الى زياد وهو أمير البصرة فقال أصلح الله الأمير تُوُفّي أَبانا وترك بَنُونا فقال زياد متعجّبا مُنكرا توفي أبانا وترك بنونا . وقالت ابنة أبي الاسود الدُّؤَلي له يوما ما أحسنُ السماء فقال نُجُومُها فقالت انى لم أرد هذا أو انما تعجبت من حسنها فقال لها اذًا فقولي ما أحسنَ السماءَ وافتحي فاكِ . وسمع أبو الاسود قارئا يقرأ قوله تعالى (ان الله بريء من المشركين ورسوله) بجرّ رسوله فأكبر ذلك وقال عز وجه الله أن يبرأ من رسوله . وكان هذا سببا لوضع علامات الاعراب للصحف بأمر زياد . وقال الحجاج يوما للشّعبي كم عطاؤك فقال ألفَين قال ويحك كم عطاؤك فقال ألفان قال كيف لحنت أوّلا قال لحن الأمير فلحنت فلما أعرب أعربت . وقيل لعبد الملك بن مَرْوان لقد عجل اليك الشَّيْب ياأمير المؤمنين فقال شَيَّبني ارتقاء المنابر وتوقُّع اللَّحْن . وكان الوليد بن عبد الملك كثير اللحن وله فى ذلك نوادر كثيرة

الكتابة والخط

كان انتشار الكتابة قبل الاسلام قليلا بين العرب كما تقدم ومنذ عصر النبي صلى الله عليه وسلم انتشرت الكتابة للحاجة اليها فى كتابة الوحي والرسائل التى كان ينفذها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الملوك والامراء وقد أمر بعد غزوة بدر من لم يكن لها فداء من الأسرى أن يعلّم عشرة من أطفال المسلمين الكتابة

ولما كثرت الفتوح فى مدة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه وضع ديوان الخراج وديوان الجيش لضبط الاعمال وكان ذلك فى المحرم سنة عشرين

وقد كان ديوان الخراج والجبايات فى بلاد العراق والشام ومصر يُكتب فيه بغير العربية الى زمن عبد الملك بن مروان وابنه الوليد حين ظهر فى العرب ومواليهم مَهَرة فى الكتابة والحساب فنقل ديوان العراق من الفارسية الى العربية والذى نقله هو صالح بن عبدالرحمن كاتب الحجاج وكان يكتب بالعربية والفارسية . ونقل ديوان الشام من الرومية الى العربية والذى نقله هو سليمان بن سعد والى الأُردُن وأكمله لسنة من ابتدائه ووقف عليه كاتب عبد الملك فقال لكُتّاب الرُّوم اطلبوا العيش من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم .

ونقل ديوان مصر من القبطية الى العربيـة والذى نقله هو عبـدالله ابن عبدالملك بن مروان فى خلافة الوليد بن عبدالملك سنة سبع وثمانين وأصبحت الدواوين الاسلامية بعد ذلك تكتب كلها بالعربية

وأول كتاب كتب باللغـة العربيـة هو القرآن الكريم وقد كتبت المصاحف العثمانية بخط الجزم (وسمى بالخط الكوفى بعد انشاء الكوفة) واستعمل فى عهـد بنى أمية مع ترقيه فى درجات الحسن تبعا لحضارة الأمة . وقد كان المصحف خاليا من الشكل والنقط غـير أنه لكثرة المسلمين بسرعة انتشار الدين وظهور اللحن والتحريف خُشِىَ على القرآن الكريم من ذلك فقام أبو الاسْوَد الدُّؤَلى ووَضَع له علامات الاعراب فى أواخر الكلمات بصِبْغٍ يُخالف لَون المداد الذى كُتب به المصحف . وجعل علامة الفتح نُقْطة فوق الحرف والضم نقطة الى جانبه والكسر نقطة فى أسفله والتنوين مع الحركة نقطتين وذلك فى خلافة معاوية . ثم ان الحجاج فى مدة عبدالملك بن مروان أمر نصر بن عاصم أن يضع له النقط والشكل لأوائل الكلمات وأواسطها وخالف فى ذلك طريقة أبى الاسود لئلا يلتبس النقط بالشكل . وبعد ذلك جاء الخليل بن أحمد فتمم بقيـة علامة الاعجام (الشكل) كالشَّدة والصِلَة والقطعة وهذب جميع العلامات فجعل الضمة واوا صغيرة فوق الحرف والكسرة ياء صغيرة

تحته والفتحة ألفا مسطوحة فوقه والشدّة رأس شين والصلة رأس صاد وسمى كل هذه العلامات بالشكل أخذًا من شكال الدابة الذى تقيّد به فكأن شكل الكلمة يقيدها عن الاختلاف فيها وكان المعروف من الخط فى ذلك العصر نوعان . أحدهما يستعمل فى كتابة المصاحف ونحوها والمسكوكات مما يُحتاج فيه الى التأنق والاجادة وحُسن النَسَق . وثانيهما يستعمل فى كتابة الرسائل ونحوها مما يُطلَب فيه الاسراع ولا يُحتاج فيه الى التأنق وزيادة التحسين . والنوع الاول هو المعروف بالخط الكوفى وأما النوع الثانى فانه أصل خط النَسْخ ارتقى فى الحُسْن والجَوْدة شيأ فشيأ حتى تحوّل الى ماهو عليه اليوم

ثم ان الخط بنوعيه انتقل الى الامصار التى انتشر فيها الاسلام وتنوّعت أشكاله ورسومه فانتقل فى عصر الأمويين الى افريقية وتولد منه الخط المغربى المستعمل الآن فى المغرب الاقصى والجزائر وتونس وطَرابُلُس

النثر والنظم وفضل القرآن الكريم

على اللغة العربية فى تهذيبها وترقيتها

قد أخذت اللغة العربية عند ظهور الاسلام وِجْهَةً دينيّة من القيام بالدعوة الى الدّين والوعظ وتبيين العقائد الصحيحة وقواعد الاسلام وأصوله وأحكامه وحِكَمه وآدابه

وانك لترى فى كلام الصدر الاول من أهل الاسلام الحَثّ على اتباع الدين والتمسـك به واعلاء كلمة الحق والعمل للآخرة والأخذ من الدنيا بنصيب والتحذير من الاسترسال مع الشهوات والأهواء والنظر الى خيرات الأقاليم التى فتحها المسلمون والتطلع اليها خوف الوقوع فى الزَّلَل . فترى رسائل هذا العصر المنير وخُطَبه تُرَدِّد صدى الكتاب العزيز حائثة على الفضيلة مُنَفِّرة من الرذيلة . وكُلُّها جاء فيه اللفظ تابعا للمعنى لم يُتَعَمَّد فيه ضَرْب من ضروب الصنعة الكلاميـة صادرة عن شعور حَىّ ووِجْدان صادق ولذا نَفَـذت الى سُوَيداء القلوب وأصابت مواقع الوِجـدان . واذا كان الكلام خارجا من القلب فانه يقع فى القلب واذا لم يكن صادرا الاعن اللسان فانه لايتجاوز الآذان . وقد قضت هذه الحكم والمواعظ والخطب والنصائح على الرذائل والأوهام بالزوال وفَسَحت للفضائل والحقائق فرأت أهلا ومكانا سهلا فتحلت بها النفوس والعقول وقويت العزائم وعَلَتْ الهمم فساد المسلمون جميع الأمم

ويرى الناظر الى حالة اللغة فى عصر الدولة الاموية انها انتقلت الى حالة أجمل مما كانت عليه لانتقال القوم من البداوة الى الحضارة ومن سكنى الخيام الى سكنى القصور فاتسعت مدارِكهم وزادت تَجارِبهم وقوى فيهم الخيال وكثرت التصورات وانتقلوا من حال الى حال فأشعر

ذلك نفوسهم معانىَ جديدة ووجدانا وعاما لم يكونا من قبل . فاحتاجوا الى العبارة عن ذلك بما يلائمه من الالفاظ والتراكيب وساعدهم على صوغ العبارات فى القالب اللائق بها قوة اللغة واتساعها وأخذهم بزمامها . وقدظهر ذلك فى خطبهم ورسائلهم ظهورا بيّنًا

وكانت موضوعاتها فى الغالب الوعظ والارشاد والذود عن الحقوق وايقاف الاطماع عند حدّها وكبْت الخارجين وتأليف الاحزاب وتوحيد الكلمة وكانت العبارات لاتزال آخذة اسلوبا حيًّا مؤثرا مع إحكام صنعة وحسن عبارة وجودة مقاطع

الخَطَـــــابة

كانت خُطَب الصدر الاول من الاسلام فى أسمى طبقات الفصاحة والبلاغة كما ترى ذلك فى خطب الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة والتابعين كمعاوية وزياد وعبدالملك والحجّاج وقَطَرِيّ بن الفُجَاءة وأبى حمزة وواصل بن عطاء . والفضل فى ارتقاء الخطابة يرجع الى الكتاب المبين من وجوه كما بيّن ذلك صاحب كتاب أشهر مشاهير الاسلام قال فى بيان هذه الوجوه

(١) ان القرآن الكريم وان نزل بلغة القوم التى بها يتخاطبون وبفصاحتها يتفاخرون الا أن أساليبه العالية التى أعجزت خطباءهم

وفصحاءهم وأخذت بمجامع قلوبهم ألبستهم ملكة من البلاغة فى تخير الأساليب غيرت ملكتهم الاولى وأطلقت السنتهم من الوحشية والتعمق الذى كان ديدن كثير من خطبائهم حتى انهم كانوا يعيبون الخطيب المصقع اذا لم يكن فى كلامه شئ من آى القرآن . روى الجاحظ أن العرب كانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل وفى الكلام يوم الجمع آى من القرآن فان ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار وحسن الموقع

(٢) ماجاء فى القرآن من الترغيب والارهاب على الاسلوب البالغ حد الايجاز وما كان له من التأثير فى الضمائر والأخذ بشكائم النفوس أعانهم على التفنن فى أساليب الوعظ الخطابى عند حلول الأزمات أو الحاجة الى تأليف قلوب الجماعات حتى لقد كان الخطيب البليغ يدفع بالخطبة الواحدة من الملمات مالا يدفع بالبيض المرهفات

ويملك من قلوب الرجال مالا يملك بالبدر والاموال

(٣) أن الاسلام بما هذب من أخلاقهم وألان من طباعهم وعدل من شيمهم أدخل من الرقة على عواطفهم مارق به كلامهم وكثر للمعانى المؤثرة فى النفوس اختيارهم فى مخاطبتهم وخطبهم

(٤) أن الاسلام بما مهدلهم من سبيل الفتح ومخالطة الامم وبما منحهم من سعة السلطان والسيادة على الشعوب وفر لهم الاسباب

الداعيـــة الى التوسع فى الخطابة بما تتطلبه حاجة التوسع من الملك وتقتضيه عادات الأمم المحكومة وأخلاقها اه بتصرف يسير فى العبارة

وكان الخطباء فى هذا العصر يمسكون بيدهم العصا أو المخصرة كما كان عليه خطباء الجاهلية قال عبد الملك بن مروان لو ألقيت الخيزرانة من يدى لذهب شطر كلامى

الرســـــائل

فى صدر الاسلام كانوا يكتبون من فلان الى فلان وجرى عمل الصحابة والتابعون حتى ولى الوليد بن عبد الملك فامر أن لا يكاتبه الناس بمثل ما يكاتب بعضهم بعضا وبقى الحال كذلك الى ما كان من عمر ابن عبد العزيز ويزيد بن الوليد حيث اتبعا السنة الاولى وبعد ذلك رجع الامر الى ما كان عليه الوليد

وفى أواخر الدولة الأموية أخذت الرسائل أسلوبا غير الذى كانت عليه ودخلتها الصنعة والقصد الى تنميق اللفظ وابتدأ ذلك الانقلاب بعبد الحميد بن يحيى الكاتب وهو أول الطبقة الثانية من الكتاب . وكانت الرسائل قبل عبد الحميد موجزة غالبا ثم طولت لاقتضاء المقام تطويلها

النظـــــم

قد انصرف العرب عن الشعر والمنافسة فيه فى أول عصر الاسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوّة والوحى وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأُخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض فى النظم والنثر زمانا ثم استقر ذلك وأُونس الرُشد من الملّة ولم ينزل الوحى فى تحريم الشعر وحظره وسمعه النبى صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه فرجعوا حينئذ الى دَيْدَنهم منه . وكان لعُمَر بن أبى ربيعة كبير قريش لذلك العهد مقامات فيه عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيرا ما يَعْرِض شعرَه على ابن عباس فيقف لاستماعه مُعجَبا به ثم جاء من بعد ذلك المُلْك والدولة العزيزة وتَقَرَّب اليهم العرب بأشعارهم يمتدحونهم بها ويجيزهم الخلفاء بأعظم الجوائز على نسبة الجودة فى أشعارهم ومكانهم من قومهم ويحرصون على استهداء أشعارهم يَطّلعون منها على الآثار والاخبار واللغة وشرف اللسان . والعرب يطالبون وليدهم بحفظها ولم يزل هذا الشأن أيام بنى أمية وصدرا من دولة بنى العباس اه من المقدمة لابن خلدون من الفصل الخمسين من الكلام على العلوم

وقال حَمّاد الراوية أمَرَ النُعمانُ فنُسخت له أشعار العرب فى الطُنُوج أى الكراريس فكُتبت له ثم دَفَنها فى قَصْره الأبيض

فلمّا كان المختار بن عُبَيد قيل له انّ تحت القصر كنْزا فاحتَفَره فأخرج تلك الأشعار فمن ثَمّ كان أهل الكُوفة أعلم بالاشعار من أهل البَصْرة . وقال ابن خلدون أيضا ان كلام الاسلاميين من العرب أعلى طبقـة فى البلاغة من كلام الجاهلية فى منثورهم ومنظومهم فانّا نجد شعْر حَسّان بن ثابت وعمر بن أبى ربيعـة والحُطَيْئة وجَرير والفَرَزْدق ونُصَيْب وغَيْـلان ذى الرُّمّة والأحْوص وبَشّار ثم كلام السَّـلَف من العرب فى الدولة الأموية وصـدر الدولة العباسـية فى تَرَسُّلهم وخُطَبهم ومُحاوَرتهم للمُلُوك أرفع طبقة فى البلاغة من شعر النـابغة وعنترة وابن كُلْثوم وزُهَير وعَلْقمة بن عَبَدَة وطَرَفة بن العَبْد ومن كلام الجاهلية فى منثورهم ومحاورتهم والطبع السـليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة . والسبب فى ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الاسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام فى القرآن الكريم والحديث الشريف اللذين عجز البشر عن الاتيان بمثلهما لكونهما وَلَجَتْ فى قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم فنهضت طِبَاعهم وارتقَت مَلَكاتهم فى البلاغة على مَلَكات مَن قَبْلهم من أهل الجاهليـة ممّن لم يَسْمَع هـذه الطَّبَقة ولا نشأ عليها فكان كلامُهم فى نَظْمهم ونَثْرهم أحسنَ ديباجةً وأصفَى رَوْنقا من أولئك وأرْصَف مَبْنًى وأعْدَل تثقيفا بما استفادوه من الكلام العالى الطبقة اهـ

والشعراء الذين أدركوا الجاهليـة والاسلام يسمّون المخضرمين (من الخَضْرمة وهى الخلْط لانهم جَمعوا بين العَصْرين الجاهلى والاسلامى) ومن أشهرهم حسّان بن ثابت والنابغة الجَعْدى وكَعْب بن زُهَير والعبّاس بن مِرْداس والحُطَيْئة . وأما الذين لم يُدْركوا عصر الجاهلية بل نَشأوا فى الاسلام بعد هؤلاء المخضرمين فانهم يسمون بالاسلاميين ومن أشهرهم جَرير والفرزْدق والأخْطَل وذو الرُّمّة والكُمَيت وبَشّار ابن بُرْد آخرهم وهو ممن أدرك العصرين الاموى والعباسى

وكلا الفريقين يُستَشهَد بكلامه فى اللغة ويُحْتَج به

وقد امتاز الشعر فى هـذا العصر ببلاغة فى المعنى ومتانة فى التعبير وإحكام فى التركيب مع رقّة وحُسْن تصرف فى القول وسعة فى التصوّر فاق فى كل منها الشعر الجاهلى

ولم يزل للشعر من المكانة فى النفوس فى العصر الأموى وصدر من العصر العباسى مثـل ما كان له فى العصر الجاهلى وان كان بعض المخضرمين كالحطيئـة والاسلاميين كالأخطل وجرير اتخذوه صناعة للتكسب وطَلَب الرزْق من السادات والامراء والخلفاء فان ذلك لم يَحُطّ من قَدْره ولم يَحُـد من شوكته ومن شواهد ذلك ماروواه الجاحظ فى البيان عن أبى عبيدة قال كان الرجل من بنى نُمَير

اذا قيـل له ممن الرجل يقول نُمَيرى كما ترى فما هو إلّا أنْ قال جرير

فَغُضّ الطَّرْف إنّكَ من نمير * فلا كعبـا بلَغْتَ ولا كلابا

حتى صار الرجل من بنى نمير اذا قيل له ممن الرجل قال من بنى عامر .

وروى الجاحظ أيضا عن أبى عبيـدة قال كان الرجل من بنى أنْف الناقة اذا قيـل له ممن الرجل قال من بنى قُرَيْع فما هو الا ان قال الحطيئـة

قَوْمٌ هُمُ الأَنْفُ والأَذْنابُ غَيْرُهُمُ * ومَن يُسَوِّى بأنف الناقة الذَنَبا

حتى صار الرجل منهم اذا قيـل له ممن الرجل قال من بنى أنف الناقة

العـلوم والمعـارف

جاء القرآن المجيد بحكمه السامية وأحكامه العادلة كافلا لمن عمل به سعادة الدنيا والآخرة فوجد فيـه المسلمون غُنْيَتَهم وجَعَلوه هو والسُّنّة النَبوية عُمْـدَتَهم ومَرجعَهم مدّة الخُلَفاء الراشـدين والدولة الأموية . وكان الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون دقائق الكتاب ويدركون حكمه وأسراره ويعرفون أحكامه من غير احتياج الى تعلم العـلوم اللسانيـة كالنحو والصرف وعلوم البلاغة ومَتْن اللغـة لانّ الكتاب كان مُتَنَزّلا بلُغَتهم التى هم بها يتخاطبون وكانوا على علم تام بالحوادث التى نزل فيها

القرآن وبأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وأنواع النَّسْخ والمحكم والمتشابه والمجمل والمفصل الى آخر علومه التى أفردها الأئمة بالتآليف وغاية الاشتغال بهـذه العلوم اللسانية انما هو الوصول الى معرفة اللغة كما كانت تعرفها العرب . ولم يكن لديهم من بقايا قدمائهم فى العلوم الدنيوية الا البعض كالطِّبّ الذى ورثوه عن أسلافهم . ولا يذهبن بك الوهم الى أن الدين الاسلامى يصدّ عن الاشتغال بالعلوم والفنون الدنيوية اذ الكتاب العزيز جاء حاثا على النظر فى ملكوت السموات والارض منبها الى الانتفاع بكل مايمكن الانتفاع به من هذه الخليقة بصريح العبارة فى الآيات العديدة غير أن المسلمين فى أول ظهور الاسلام كان يمنعهم عن الاشتغال بهذه العلوم انصرافهم الى القيام بدعوته وتَصَدّيهم لتهذيب جميع العالَم وترقيته وتخليص مَن حَوْلَهم مِنَ الأمَم من شوائب الأوهام والرذائل . فكانوا خُصَمَاء للعالَم كله . فلمّا تضمّخ الخافقان بطيب عبيره وارْتَوَى الأفُقان من عُذَيب نَمِيره واستقرّت من الدين دعوته وعلت كَلِمته ونَفَذَت شَوْكته وُجّهت العناية الى تلك العلوم الدنيوية فى أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية . وقد ظهرت آثار العلوم العقلية فى أوائل القرن الثانى وترجمت جملة من الكتب العلمية والصناعية

وكان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين يستظهرون الاحاديث النبوية ولا يكتبونها وجرى التابعون على سنتهم حتى كانت خلافة عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه فكتب الى الافاق (انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم واجمعوه) ودوّنه بأمره محمد بن شهاب الزُهْرى المتوفّى سنة ١٢٥ وكان ابتداء تدوين الحديث على رأس المائة . وبعد ذلك دُوّنت كُتُب الحديث تباعا فى عصر العباسيين ووجهت اليها العناية حتى ضبطت ضبطا محكما

وأما البراعة فى الآداب من العلم بوقائع العرب وتاريخهم وقول الشعر وانشاء البليغ من النثر فانها قد بلغت فى خلافة بنى أمية مبلغا لم تبلغه أمة قط فى مثل مدّتها . وقد كان الخلفاء من بنى أمية يعْلُون مَنْزلتها ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء وكذا الدولة العبّاسية وأخبار المهدى مع المفضّل وحمّاد وحديث الرشيد مع الأصمعى حلية تلك القلادة وقال الامام أبو الحسن بن سعيد العسكرى بلغ من عناية بنى أمية وشغفهم بالعلم انهم ربما اختلفوا وهم بالشام فى بيتٍ من الشعر أو خَبَرٍ أو يومٍ من أيام العرب فيُبردون فيه البَرِيد الى العراق حتى قال أبو عبيدة ما كنا نفقد فى كل يوم راكبا من ناحية بنى أمية ينيخ على باب قتادة يسأله عن خَبَرٍ أو نَسَب أو شعر فقدم عليه رجل من

عنـد أبناء الخلفاء من بنى مروان فقال له مَن قَتَـل عامرا وعمرا التغلبيَّين يومَ قِضَّةَ فقال قتلهما جَحْـدَر بن ضُبَيْعَةَ بن قيس بن ثَعْلَبـة فشَخَصَ بها ثم عاد اليه فقال أجَلْ قتلهما جحدر ولكن كيف قتلهما جميعا فقال اعْتَوَرَاهُ فطعَن هذا بالسِّنَان وهذا بالرُّمْح فَعَادَى بينهما ثم قال ولم يزل المأمون حين دخل العراق يراسـل الأصمعىّ فى أن يجيئه ويحرِص على ذلك والشيخ يعتذر بضعف وكِبَر ولم يُجِب فكان الخليفة يجمع المسائلَ ويُنْفِذها اليه الى البصرة اهـ باختصار

وقد كتب شئ من التاريخ فى زمن معاوية رضى الله عنه وقال ابن خلكان أنه رأى تأليفا لوهب بن منبه المتوفى سـنة ١١٦ فى أخبار ملوك حمير وأشعارهم

وكان وضع علم العربية فى آخر عهد الخلفاء الراشدين بسبب انتشار اللحن وأول من وضعه وأسس قواعده أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه وأخذه عنه أبو الأسود الدؤلى وأتمّه

قال أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الانبارى فى كتابه تاريخ الادباء بعد كلام مانصه

وسبب وضع على كرم الله وجهه لهـذا العلم ماروى أبو الاسود قال دخلت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب فوجدت فى يده رُقْعة فقلت

ماهذه ياأمير المؤمنين فقال انى تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء (يعنى الاعاجم) فأردت أن أضع شيئا يرجعون اليه ويعتمدون عليـه . ثم ألقى الىَّ الرقعة وفيها مكتوب (الكلام كله اسم وفعـل وحرف فالاسم ماأنبأ عن المسمى والفعـل ماأنبئ به والحرف ماأفاد معنى) وقال لى انْحُ هـذا النَحْو وأضفْ اليـه ماوقع اليكَ واعلم ياأبا الاسود أن الاسماء ثلاثة ظاهر ومضمر واسم لاظاهر ولا مضمر وانما يتفاضل الناس ياأبا الاسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر (وأراد بذلك الاسم المبهم) . قال ثم وضعت بابى العطف والنعت ثم بابى التعجب والاستفهام الى أن وصلت الى باب ان واخواتها فكتبتها ماخلا «لكنّ» فلما عرضتها على أمير المؤمنين عليه السلام أمرنى بضم «لكن» اليها . وكنت كلما وضعت بابا من أبواب النحو عرضته عليه الى أن حصلت مافيـه الكفاية فقال ماأحسن هـذا النحو الذى نحوتَ فلذا سُمّى «النحو» اه

وأخذ عن أبى الاسود جمع من الطُّلاَّب من أشهرهـم نصر بن عاصم المتوفى سنة ٨٩ بالبصرة وهو واضع النقط والشكل للصحف كما تقدم . وجاء بعده جمع من أئمة العربية أحكموا ترتيب القواعد وأكثروا من الادلة والشواهد وسيرد عليكَ ترجمة بعضهم فى هذا الكتاب

حالة اللغـــة العربيـــة وآدابهـا

فى عصر الدولة العباسية وما بعدها

جاءت الدولة العباسية وقد انتشرت العرب فى أنحاء المعمورة وامتد ملكهم شرقا وغربا من الهند الى الاندلس ودانت لهم أمم كثيرة مختلفة اللغات واللهجات دخل أكثرهم فى الاسلام واختلطوا بالعرب وتكاموا بلغتهم فكثر المتكاموون بالعربية من غير العرب وهم كما تعلم من الاعاجم الذين لم تكن العربية ملكة فيهم كالعرب فسرى الفساد الى اللغة وفشا اللَّحْن والتحريف . وكان أول ماظهر ذلك فى المُدن والأمصار ثم دب الى البَدو بعد زمن طويل لقلة اختلاطهم بالأعاجم . ومن لم يختلط منهم لم تفسد لغته . وكانت سرعة الفساد وبطؤه تابعين لكثرة المخالطة وقلتها

ولما تغلب العجم من الديلم والسلجوقية على الممالك الاسلامية فى بلاد فارس والعراق والشام زاد فساد اللغة وكاد اللسان العربى يذهب لولا الكتاب المجيد . وبعد أن سقطت الدولة العباسية وتغلب التتر والمُغُول بالمشرق (ولم يكونوا وقت تغلبهم مسلمين ثم دخلوا فى الاسلام بعد ذلك) أخذت اللغة العربية فى البلاد الفارسية وماجاورها فى الاضمحلال حتى لم يبق لها رسم فى الممالك الاسلامية بالعراق العجمى وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند وبلاد الروم إلا فى كُتُب الحديث والدين وبعض كتب

العلم حتى ان كثيرا من مؤلفاتها كتب بغير اللغة العربية كالتركية والفارسية والهندية وذهبت أساليب اللغة من النثر والنظم الا قليلا وبقيت العربية ببلاد العرب والعراق العربى والشام ومصر وبلاد المغرب ثم تشرّف بالاسلام أولئك المتغلّبون فعاد فى بلادهم الى العربية بعض رُوَائها وفاض بعد أنْ غاض مَعِينُ رَوَائها غير أن لغة الكلام أصبحت بعيدة عن لغة الكتابة لكثرة مادخلها من التغيير والتبديل واتسعت مسافة الخلف بينهما. فالكتابة لاتزال باللغة العربية الصحيحة فى الكتب المعتبرة وأما الكلام فقد تغلبت عليه اللغة العامية وهى خليط من اللغة العربية بعد تحريف كلماتها وتغيير أساليبها ولهجتها مع بعض كلمات وأساليب من لغات أخرى امتزجت بها . وهذه اللغة العامية كل يوم فى تقلب وتغير لاختلاف المخالطين لأهلها من الاعاجم وتفاوت سلطتهم قوة وضعفا. ولذا تجد اللغات العامية تختلف فى لهجتها وبعض كلماتها باختلاف البلاد والعصور كما ترى ذلك فى لغة أهل مصر والشام وبلاد المغرب اذا قارنتها بعضها ببعض وفى لغة أهل الجزائر اليوم ولغتهم قبل ذلك بخمسين سنة.

ولقد أتى فى مصر والشام زمن طويل على اللغة العامية زاحمت فيه اللغة العربية الصحيحة فى الكتابة وفى بعض المؤلفات كما ترى شيأ

من ذلك فى تواريخ ابن اياس والجبرتى والانس الجليـل وربما تعمّد مؤلفوها ذلك لافهام العامة وتراه أيضا فى كتابة الدواوين بمصر فى القرن الماضى ولا تزال آثاهـا ظاهرة الى اليوم ظهورا بينا فى بعضها وقليلة أو نادرة فى بعضها الآخر

بل كانت لغـة الدواوين فى مصر بعضها لايفهم لبعده عن كل من اللغة العامية واللغة الصحيحة

ولكن عناية الله تعالى تداركت هذه اللغة الشريفة وهى على آخر رمق من حياتها بعلماء أفاضـل أخذوا بناصرهـا من زمن غير بعيد ونهضوا بها نهضة لم تكن فى الحسبان حتى أرجعوا اليها بعض مافقدته من قوتها

النـــثر والنظـــم

اتسع نطاق النثر فى العصر العباسى اتساعا عظيمـا ودوّنت به جميع العلوم من دينية وأدبية ورياضية وطبية وفلسفية وغير ذلك مما وضعه المسلمون أو ترجموه من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية

وقد استدعى هذا وضعا جديدا لكثير من الالفاظ بحسب اصطلاحات العلوم والفنون كما ترى ذلك فى اصطلاحات علوم الدين والأدب والرياضة والطب والفلسفة من الأوضاع العرفية المستحدثة

وكانت عبارة التأليف من ابتداء تدوين العلوم الى حوالى القرن الرابع خالية من التعقيد حسنة الأسلوب متينة التركيب قريبة المأخذ لاسيما علوم الأدب والشريعة أصولا وفروعا حتى كتب القواعد النحوية من اللغة

وكذا كان شأن الرسائل والتحرير فى أىّ غرض كان فى ذلك العصر الذى زهت فيه العلوم وحييت الآداب وعمّت الحضارة والمدنية وبلغ كل ذلك غايته من الارتقاء بين الأمة الاسلامية . غير أنه دخل شئ من التكلف فى النثر والنظم ولكنه كان مستترا بحسن السبك وإحكام الصنعة فى الغالب ولم يكن ليؤثر فى جملة المنظوم والمنثور تأثيرا كبيرا لقلته ولحسن التصرف فيه وبعد ذلك أخذت هذه الحياة الادبية فى الضعف تبعا لضعف الخلافة العباسية العربية وكثر التكلف فى الكتابة والنظم ومال كثير من الكتاب الى السجع وكاد بعضهم يهمل جانب المعنى لاهيًا عنه بالالفاظ وتنميقها والجناس ونحوه من المحسّنات اللفظية حتى صنفت كتب بالكلام المسجوع كتاريخ العتبى والفتح القدسى لكنّ عبارة التأليف فيهما وفى كثير من الكتب لاتزال راقية عالية الأسلوب وكذا بعض الرسائل والمحررات حتى دخلت اللغة فى دور الانحطاط بسقوط الدولة العباسية شيأ فشيأ الى عصرنا هذا حيث أخذت تستعيد بقدر الامكان ما كان لها من حسن الأسلوب ومتانة

التركيب مع البعد عن تكلف السجع والجناس والقصد الى المعنى . والفضل فى ذلك يرجع للنهضة العامّة فى مصر والشام كما تقدّمت الاشارة الى ذلك فى الفصل السابق

النظـــــم

قد فَسَحَت الحَضارة وسعة العمران لشعراء الدولة العباسيه مجالا لم يَنْفَسِح للشعراء قبلهم فذهبوا فيه المذاهب وتفننوا وأبْدَعوا وتصرّفوا فى المعانى وأجادوا السَّبْكَ وأحكموا الصنعة وفاقوا فى الرّقّة والسهولة والتفنّن فى القول مَن تَقَدَّمهم من شعراء الدولة الأموية . ولا عجب فى ذلك فقد وصفوا ماشاهدوه مما امتلأت به أيدى الفاتحين من خيرات الاقاليم وما وقع تحت حسهم من آثار الامم التى تغلبوا عليها واللغة فى عنفوان شبابها والخلفاء من أكبر أنصارها (والناس على دين ملوكهم) وانك لترى العجب فى كلام شعراء العباسيين الى نهاية القرن الثالث فقد بلغوا الغاية فى كل ماتكلموا فيه واستمر الشعر فى قوّته بعد القرن الثالث غير أن الشعراء المجيدين أخَذ عَدَدهم يقلّ شيأ فشيأ حتى انتهوا بالطُّغْرَائى المتوفى سنة ٥١٣ وجاء بعد هؤلاء قوم اشتهروا ولكنهم لم يبلغوا شأو من تقدّمهم وكان آخرهم صَفىّ الدين الحلّى المتوفى سنة ٧٤٠ وبعد ذلك أصبح النظم كالنثر فى حكمه ضعفا وقوّة حتى عصرنا هذا

وشعراء الدولة العباسية يسمون بالمولدين وقد امتاز شعرهم بالرقة والسهولة وعذوبة اللفظ والتوسع فى التشبيه والمجاز والكناية والتوغل فى الخيال مع القرب من الحقيقة احيانا وقد أكثر المتأخرون منهم من المحسنات البديعة حتى صار لكلامهم مَسْحة ظاهرة من الحُسْن من دونها معنًى تافه أو غلوّ غير مقبول

وقد كان لكل شاعر طريقة امتازبها فى شعره وقد جمع بعضهم بين النثر والنظم واتفق له فى كل منهما كلام جيد كالبديع والخوارزمى والميكالى والشريف الرضى . ولقد كان للشعر مكانة فى النفوس وسلطان عليها الى صدر الدولة العباسية ثم فقد تأثيره بعد ذلك لكثرة المتبذلين من الشعراء فى المدح والهجو ولغلُوّهم فى ذلك وكذبهم ولانحطاطهم من أعين العظماء خصوصا غير العرب الذين لايقع من نفوسهم الشعر الجيد موقعه من نفس العربى

وقد زاد المولدون أوزانا للنظم كالموشح والسلسلة والدوبيت وتفننوا فى النظم فقسموا وشطروا وتصرفوا فيه تصرفا كثيرا

وفحول شعراء المولدين والمجيدون من كتابهم كثيرون فمن الفريق الاول بعد بشار بن برد مسلم بن الوليد وأبو نُوَاس وأبو العَتَاهية وأبو تمّام والبُحْتُرِىّ وابن المُعْتَزّ وابن الرُّومىّ والمتنبّى والشريف الرَّضِى

وأبو العلاء المعرّى وأبو فراس والحسن بن هانئ الاندلسى وابن خفاجة والطغرائى

ومن الفريق الثانى بعد عبد الحميد بن يحيى ابراهيم الصولى والحسن ابن وهب والجاحظ وابن العميد والصابئ وابن عبّاد والخوارزمى والبديع والحريرى والقاضى الفاضل وعبد اللطيف البغدادى

الخط العـــربى

فى عصر العباسيين توجهت العناية الى تجويد الخط وتحسينه وخالفت أوضاعه فى بغداد أوضاعه فى الكوفة فى الميل الى اجادة الرسوم وجمال الشكل . واخترعت الأقلام المختلفة فظهر قلم الثلث والثلثين والنصف نظرا لاستقامة ثلث الحروف أو ثلثها أو نصفها وغير ذلك من الاقلام الأخرى . واستمر الخط آخذا فى الارتقاء والجودة حتى ظهر ببغداد الوزير الكاتب أبو على محمد بن على بن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨ واخترع نوعا من الخط سمى بالخط البديع . وقد اشتهر بين الكتاب أن هذا الخط البديع هو خط النسخ الشائع اليوم نقله ابن مقلة عن الخط الكوفى . ونفى ذلك بعض الباحثين مستدلين بوجود خط النسخ قبل زمن ابن مقلة كما شاهدوا ذلك فى بعض الصحف والرسائل التى كتبت قبل ابن مقلة . والظاهر أن ابن مقلة لم يخترع

خط النسخ اختراعا ولكنه تصرف فيه تصرفا بديعا ونقله الى صورة امتاز بها عن أصله فى الجودة والحسن . وهذا مقام لايزال محتاجا الى البحث والتحقيق . وكان ابن مقلة يضرب به المثل فى حسن الخط . وتلاه فى ذلك أبو الحسن على بن هلال الكاتب الشهير المتوفى سنة ٤٢٣ وقد أقر له أهل زمنه بالسابقة وعدم المشاركة فى حسن الخط وهو الذى هذب الخط العربى ونقحه بعد ابن مقلة

ثم ان الخط الكوفى أهمل بتوالى الايام وحل محله خط النسخ . وقد تفنن الترك فى تحسين الخط وتنويعه فاخترعوا خط التعليق والرقعة وأوصلوا النسخ والثلث الى أقصى درجات الحسن والاتقان كما هو مشاهد الآن

والخط العربى منتشر فى البلاد الاسلامية كلها تكتب به العربية والتركية والفارسية والافغانية ولسان أردو بالهند ولسان الملايو بجزيرة جاوة وما حولها

العلوم والمعارف

قد اعتنى الخلفاء والعلماء فى عصر الدولة العباسية بتدوين العلوم الاسلامية فوضعوا أصول الفقه وصنفوا فى فروعه واستنبطوا أحكامه ودونوا الاحاديث النبوية وتفسير القرآن الكريم وعلوم العربية واستخرجت علوم البلاغة ووضعت لها القوانين والشواهد ووُضع

العَروض وحصرت أوزان الشعر العربية فى دوائرها الخمس . وألفوا وترجموا كتبا فى الطب والهيئة والهندسة وسائر العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية وتقويم البلدان والتاريخ العام وتاريخ الاشخاص . واعتنوا باللغة وضبطها وتصرفوا فيما ترجموه فنقحوا وهذبوا وزادوا واستنبطوا وأصلحوا كثيرا من أغلاطه . وقد وسعت اللغة العربية كل العلوم التى ألفت بها أو نقلت اليها ولم يدخل من الالفاظ الاعجمية الا شيء يسير وأكثر ماوقع ذلك فى الكتب التى عربها بعض من لايحسنون العربية . وتفصيل الكلام على هذه العلوم واشتغال المسلمين بها وعنايتهم بتهذيب ماترجموه منها وجعله صالحا لأن ينتفع به كل ذلك يحتاج الى تأليف الأسفار الكبار ليوفى حقه من البحث والشرح . غير أنا ذاكرون مختصرا وجيزا مناسبا للمقام مقتطفا مما كتبه كبار مؤرخى المسلمين ومحققو المؤرخين من الافرنج المنصفين وأفاضل الكتاب المعاصرين فى مآثر العرب وعلومهم ومعارفهم ومالهم من الفضل على العالم كله فى ذلك كله مازجين أحيانا كلامهم بعضه ببعض أو مصرحين بنسبة القول الى قائله حسب اقتضاء المقام ذلك فنقول

أول من اعتنى بالعلوم وتدوينها من الخلفاء العباسيين أبو جعفر المنصور وقد أخذ فى انشاء المدارس للطب والشريعة وكان مع براعته

فى الفقه وفرط شـغفه به قد جعل جزأ من زمنـــه خاصا بتعلم العلوم الفلكية وترجم فى زمنه كتاب أوقليدس فى الهندسة والهيئة والحساب

وأكمل حفيده الرشـيد ماشرع فيـــه وأمر بأن يلحق بكل مسجد مدرســة لتعليم العلوم بأنواعها . وكان باذلا جهده فى احيـاء العـلوم والآداب ونشرها وكتب فى أيامه مصـنفات كثيرة فى العلوم الاسـلامية وغيرها مما ترجم عن اليونانيـــة ومن ذلك كتاب المجسطى الذى ألفـه بطليموس فى الرياضة السماوية وقيل ان هذا الكتاب ترجم فى زمن المأمون بأمره . وكان المترجمون قوما من السريان غير مسلمين وقد أحســن الخلفاء صلتهم وأفاضوا عليهم النعم وكان أكثرهم غير متمكن من العلوم التى نقلوها الى العربيـــة فوقع فيها الغلط الكثير فصححه بعـد ذلك الراسخون فى العلم من العرب فى عصر المأمون وما بعده كما صححوا كثيرا من غلط اليونانيين أنفسهم . وكان اشتغال العرب بالعلم للعمل به فتناولوا الكتب التى ترجموها من قوم كان حظهم منها حفظها على انها من نفائس الذخائر ومآثر الجيل الغابر وقد ظهر أثر العمل فى عصر الرشيد ومن ذلك الساعة الدقاقة المتحركة بالماء التى أرسلها الى شرلمان ملك فرنسا وعظيم أوربا لعهده ففزع الأوربيون منها لذلك العهد وتوهموا انها آلة سحرية قد كمنت فيها الشياطين وان ملك العرب ماأرسلها

اليهم الا لتغتالهم وتوقع بهم شر ايقاع . وقد اجتمع فى حضرة الرشيد كثير من أكابر العلماء وكان يأتى بهم ويرفع منزلتهم وكلما سافر لحج بيت الله الحرام استصحب معه مائة من العلماء

ولما أفضت الخلافة الى المأمون وجه عنايتـه الى العلوم والآداب وشُغف بالعلم كل حياته ولم يكن يجالس الا العلماء وقد جمع وترجم كثيرا من كتب الفرس واليونان فى الهيئـة والطبيعيات وتخطيط الاراضى والموسيقا . وغرس للعلم والادب جنانا ناضرة فزكا نَبْتها وتفتح نَوْرُها وطاب ثمرها ووصلت به دولة العلم الى أَوْج قوتها ونالت به أكبر ثروتها . وكانت بغداد فى عهده مدرسة علمية كما كانت دار خلافة . وكان من شروط صلحه مع ميشل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكاتب الآستانة وقد فعل . وقد ألف علماء العرب فى زمنـه أرصادا وأزياجا فلكية وحسبوا الكسوف والخسوف وذوات الأذناب وغيرها ورصدوا الاعتدال الربيعى والخريفى وقدروا ميـل منطقة فلك البروج وقاسـوا الدرجة الارضية وأصلحوا بأمره غلط بعض الكتب التى ترجمت قبل زمنه

وجاء الواثق بعد المأمون وحذا حذوه فى الاشـتغال بالعلوم واقتدى بالخلفاء الوزراء والأمراء فى زمنهم وبعده وأخذوا جميعا بناصر العلماء وشدّوا أزرهم ورفعوا منزلتهم

فأخذ العلماء فى الاشـتغال بكل علم وكل فنّ أمكن الاشـتغال به فى ذلك العصر وبنوا علومهم على التجربة والمشاهدة. قال أحد فلاسفة الاوربيين ان القاعدة عنـد العرب هى «جرّب وشاهد ولاحظ تكن عارفا» وعنـد الاوربى الى مابعـد القرن العاشر من التاريخ المسيحى «اقرأ فى الكتب وكرّر مايقول الاساتذة تكن عالما» اه فانظر الفرق وقارنه بما تجـده الآن من فرط عنايتهم بالبحث وما ينجم عنـه من اصلاحهم الخطأ فيما لايحصى مما كانوا أثبتوه حتى انّ فطاحل منصفيهم لم يجدوا بدّا من الاعتراف بامكان أن يثبت لهـم غدا ضـد ماأثبتوه اليوم كما ثبت لهـم اليوم ضـد ماأثبتوه أمس ولا من الاقرار بعـدم الوقوف على كنه الكثير من ظواهر الكون التى ينتفعون بخواصها

ومن العلوم التى كان للعرب فيها اليـد البيضاء علم الهيئة والهندسة وسائر العـلوم الرياضـية فان مازادوه عليها من مخترعاتهم وما أصلحوه من اغلاط اليونانيين قبلهم جعل لهم الحظ الأوفر فى هـذه العلوم . قال ديلامبر فى تاريخ علم الهيئة اذا عددت فى اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصـدين أمكنك أن تعدّ من العرب عددا كبيرا غير محصور . وعن العرب أخذ الافرنج الارقام الحسابيـة وعلم الجبر والمقابلة الذى هو من وضع العرب أخذوه باسمه ومسماه . وقال بعض المؤرّخين انّ

ديوفنتوس الاسكندرى من أهل القرن الرابع للميلاد هو أول من ألف فى الجبر وكتبه لاتزال موجودة الى الآن . والحق ان هذه الكتب ليس فيها الا قواعد استخراج القوى وحل بعض المسائل وليس فيها أصول الفن وقواعده الاساسية التى امتاز بها وصار فنا مستقلا . ونظير ذلك علوم البلاغة قالوا ان مؤسسها وواضعها هو الامام عبد القاهر الجرجانى مع أن العلماء قد سبقوه الى الكلام فى بعض مسائلها ولكنهم لم يبلغوا بذلك أن جعلوها علما ذا أصول وقواعد كما جعلها

وقد اكتشف العرب قوانين لثقل الاجسام مائعها وجامدها ووضعوا لها جداول فى غاية الدقة والعمة . واخترعوا البندول للساعة اخترعه ابن يونس المصرى . والبوصلة البحرية واخترعوا بيت الابرة أيضا . وهم أول من استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على أقسام الزمن وأول من أتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض

ومن علومهم التى وضعوها ولم يُسبقوا اليها علم الكيميا الحقيقية فهى من اكتشاف العرب دون سواهم وعنهم أخذها الاوربيون وانك لاتستطيع أن تعد مجربا واحدا عند اليونانيين ولكنك تعد من المجربين مئين عند العرب

وقد اشتغلوا بالطب والصيدلة ولهم فى ذلك المؤلفات العديدة النافعة ومركبات الادوية الصالحة . وهم أول من استحضر المياه والزيوت بالتقطير

والتصعيد وأوّل من استعمل السكر فى الادوية وكان غيرهم يستعمل العسل . وكان حكام الاندلس يعتنون بادارة الصيدليات فيفحصون أدويتها ازالة للغش ويُسَعّرونها رِفْقا بالفقير وفَضْلُهم فى الطب على أوربا لا ينكر . وقد برعوا فى الجراحة وكان النساء بالاندلس يباشرن كثيرا من العمليات الجراحية بغيرهن من الاناث وذلك مايَحُثّ عليه أهل أوربا وأمريكا اليوم . ولهـم فى هـذه الفنون مؤلفون يعـدّون فى الطبقة الاولى من علماء العالم فى العلوم التى اشتغلوا بها ولا تزال مؤلفات كثير منهم باقية الى اليوم كقانون ابن سينا ومفردات ابن البيطار واذا رجحت القول بأن يونان أخو قحطان غاضَبه فـرحل من اليمن ونزل مابين الافرنجة والروم فاختلط نَسَبُه بهم كانت تلك الكتب اليونانية انما هى بضاعة العرب ردّت اليهم

ولم يكن اشتغالهم بالجغرافية والتاريخ العام وتاريخ الاشخاص أقل من اشتغالهم بالعلوم السابقة فلهم السياحات العديدة حول أفريقية وآسية وجانب من أوربا وقد رسموا ما اكتشفوه رسما حسنا ولهم فى تقويم البلدان مؤلفات عديدة بعضها مطبوع وبعضها غير مطبوع فمن الاوّل تقويم البلدان لأبى الفداء ومعجم ياقوت طبعا فى أوربا ومن الثانى نزهة المشتاق للشريف الادريسى محمد بن محمد الصقلى كان

فى القرن السادس الهجرى وهو الذى صنع لرجار الفرنجى ملك صقلية سنة ١١٥٣ أول كرة أرضية عرفت فى التاريخ زنتها من الفضة ١٤٤ أقة رسم فيها جميع أنحاء الارض فى زمانه رسما غائرا مشروحا بالاستيفاء وصنف له أيضا كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق مرتبا على الاقاليم السبعة وصف فيه البلاد والممالك مستوفاة مع ذكر المسافات بالميل والفرسخ . ومؤلفاتهم فى التاريخ تفوق الحصر . والفضل الاول فى الاشتغال بهذه العلوم يرجع الى مدرسة بغداد التى كانت ينبوعا أصليا استمدت منه سائر المدارس الاسلامية . قال بعض مؤرخى الافرنج ان العرب استقاموا عدة قرون على الطريقة التى وضعها علماء مدرسة بغداد واتبعوا قواعدهم وهى الانتقال من النظر فى المسببات الى اجتلاء الاسباب لا يعولون الا على ما اتضحت صحته وعرفت حقيقته

وقد أنشئت المدارس العديدة تباعا وجمعت اليها العلماء ولم يخل منها قطر من الاقطار الاسلامية . وازدانت بهذه المدارس بغداد والبصرة والكوفة وبُخَارَى وسَمَرْقَنْد وبَلْخ وأصفهان ودمشق وحلب فى قارة آسية والاسكندرية والقاهرة ومراكش وفاس وسبتة والقيروان فى قارة أفريقية وأشبيلية وقرطبة وغَرْناطه وغيرها من مدن الأَنْدَلُس العديدة فى قارة أوربا . وكان بالقاهرة وحدها عشرون مدرسة فى القرن الرابع وفى قرطبة

وحدها من بلاد الاندلس ثمانون مدرسة فى مدّة الحَكَم بن عبد الرحمن الناصر المتوفى سنة ٣٦٦

وأصبحت الاندلس بعد ذلك فى أواخر القرن الخامس غاصة بالمكاتب والمدارس الجامعة ولم تَخْل مدينـة من مدنها من مدارس متعددة . قال جيون فى كلامه على حماية المسلمين للعلم فى الشرق والغرب ان ولاة الاقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفـاء فى اعلاء مقـام العـلم والعلمـاء و بسط اليـد فى الانفاق على اقامة بيوت العـلم ومساعدة الفقراء على طلبه . وكان عن ذلك أن ذَوْق العلم ووِجْدان اللذة فى تحصيله انتشرا فى نفوس الناس من سَمَرْقَنْد وبُخَارَى الى فاس وقرطبة . أنفق وزير واحد لأحد السلاطين (هو نظـام الملك) مائتى ألف دينـار على بنـاء مدرسة فى بغداد وجعل لهـا خمسة عشر ألف دينار تصرف فى شؤونها كل سنة . وكان الذين يُغَذَّون بالمعارف فيهـا ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء فى المملكة وابن أفقر الصناع فيها . غير أن الفقير يُنفَق عليه من الرَيع المخصَّص للمدرسة وابن الغنى يكتفى بمـال أبيه والمعلمون كانوا يُنْقَدون أجورا وافرة اه

وجميع المدارس الطبيـة فى البلاد الاسلامية أخذت نظام امتحانها عن مدرسـة الطب فى القاهرة وكان من أشـدّ النظامات وأدقها . ولم

يكن لطبيب أن يمارس صناعته الا على شريطة أن تكون بعد شهادة بأنه فاز فى الامتحان على شدّته . وأوّل مدرسة طبّية أنشئت فى قارة أوربا على هذا النظام المحكم هى التى أنشأها العرب فى ساليرت من بلاد ايطاليا . وأوّل مرصد فلكى أقيم فى أوربا هو الذى أقامه العرب فى أشبيلية من بلاد الاندلس

وقد تعددت المراصد الفلكية فى البلاد الاسلامية شرقا وغربا ومن أشهرها مرصد بغداد المنشأ على قنطرتها وقد رصدت به عدّة أرصاد وصححت جملة أزياج . ومرصد المراغة الذى أنشأه نصير الدين الطوسى بأمر هولاكوخان ولما أتم كوبلاى خان أخو هولاكو فتح الصين نقل مؤلفات علماء بغداد اليها . ومرصد سَمَرْقَنْد الذى أنشأه تيمورلنك . ومرصد دمشق الذى أنشأه الوغ بك مرزا محمد حفيد تيمورلنك وكان من أعلم علماء الفلك وله زيج مشهور معتبر الى هذا العصر . وكان بمصر مرصد جبل المقطم أنشأه ابن يونس الفلكى الشهير صاحب الزيج الحاكمى

وأما دور الكتب فلم تكن عناية الدول الاسلامية بها أقل من عنايتهم بالمدارس فقد كان فى القاهرة فى أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوى على مائة ألف مجلد منها ستة آلاف فى الطب والفلك لاغير . ومكتبة الخلفاء فى الاندلس بلغ مافيها ستمائة ألف مجلد وكان فهرسها

أربعة وأربعين مجلدا . وقد حققوا أنه كان ببلاد الاندلس وحدها سبعون مكتبة عمومية وكان فى هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة . وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب ويجعلون ديارهم معاهد دراسة لما تحتوى عليه وأما ضخامة تآليفهم فما لايحصره العدّ وحسبك فى المشرق كتاب قَيْد الأوابد للامام البَيْحَذِيهى المتوفى سنة ٥٥٩ من قرى خراسان فى ٤٠٠ مجلّد وفى الاندلس لأحمد ابن آبان كتاب العالَم نحو ١٠٠ سفر بدأ فيه بالفَلَك وختم بالذَّرّة والأعجب الأغرب كتاب فلك الأدب الذى تعاقب على تأليفه من جهابذة الاندلسيين ٦ فى ١١٥ سنة آخرها سنة ٦٤٥ هـ

ولقد أحرق أهل اسبانيا من الكتب الاسلامية بعد جلاء المسلمين عنها مايدهش لبيان عدده السامع ويحار المتأمل ويتوقف قلم الكاتب

جاء فى المجلد الثالث من المقتطف وجه ٧ مانصه

ليقل لنا أهل اسبانيا أين الثمانون ألف كتاب التى أمر كردينالهم شيمتر بحرقها فى ساحات غَرْناطة بُعَيد استظهارهم عليها فأحرقوها وهم لايعلمون مايعملون حتى أَقْنَوا على ماقال مؤرخهم ربلس ألف ألف وخمسة آلاف مجلد كلها خطها أقلام العرب . وليتهم يخبرون كم من كتاب لعبت به نيرانهم بعد ذلك حتى لم يبقوا من معارف العرب ولم

يذروا . ومايقولون عن السفن الثلاث التى ظفروا بها مشحونة بالمجلدات العربية الضخمة وطالبـة ديار سلطان مراكش فسلبوها وألقوا كتبها فى قصر الاسكوريال سنة ١٦٧١ ميلاديه (الموافقة سنة ١٠٨٢ هجرية) حتى لعبت بها النيران فأكلت ثلاثة أرباعها ولم يستخلصوا منها الا الربع الاخير . حينئذ استفاقوا من غفلتهم وعلموا كُبْر جهالتهم ففوضوا الى ميخائيل القصيرى الطربلسى المارونى ترتيبها وكتابة أسمائها فكتب لهم أسماء ١٨٥١ كتابا منها فعلى مافى هـذه الكتب وما بقى فى أفريقية والمشرق قَصَر أهل هذه الايام معارفَ العَرَب وحتى هذه لم يستوعبوا جميع مافيها اه

وأما مكاتب بغداد فانه لما فاجأها التتار بالهجوم بعد قتل الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين جعلوا دأبهم السلب والنهب وأخذوا كتب العلم التى كانت فى خزائنها وألقوها بدجلة فعبرت عليها جنودهم . فأضف هذه النفائس الى ماأحرقه أهلُ اسبانيا وتصوّر مقدار ذلك كله ثم انسُبْ مابقى من الكتب الاسلامية الى ماأتلف منها وتفكر بعد ذلك فى ان هذه الملايين من الكتب انما خُطّت بالقلم قبل أن تُعْرَف المطبعة واحكم بعد ذلك وأنت منصف فى حكمك بأن العرب لم تسبقهم أمة اعتنت بالعلم اعتناءهم واهتمت به اهتمامهم

وتتميما للفائدة نذكر ماورد فى مجلة المقتطف فى سنتها الثالثة فى صفحة ٩١ و ٩٢ تحت عنوان فضل العرب وهو خاتمة مقال نشر فى تلك السنة فى بيان مآثر العرب وعلومهم وبعض علمائهم وقد اقتطفنا من هذا المقال الجامع شذرات ضمناها مقالنا السابع وهاهو ماذكر تحت هذا العنوان

فى القرون الوسطى قصد أهل أوربا مدارس الاندلسيين وكانت على غاية الاتقان وقرؤا العلم فيها ثم تزودوه منها الى بلادهم . ففى سنة ٨٧٣ للمسيح أمر هرتموت رئيس دير مارى غالن جماعة من رهبانه بدرس اللغة العربية لتحصيل معارفها . وكان الرهبان البندكتيون يطلبون العلوم العربية بشوق لامزيدعليه وأشهر من تعلم العلم من العرب البابا سلڤستر الثانى وأصله رجل فرنسى يسمى جربرت طاف على قسم كبير من أوربا طالبا المعارف حتى دبت قدمه فى الاندلس فرتع فى مدارس اشبيليه وقرطبة وصرف الى العلوم رغبته فلما ساغها هنيئا عاد الى دياره وما زال يسمو على اقرانه حتى تنصّب بابا فشاد للعلم مدرستين الاولى فى ايطاليا والاخرى فى ريمز وأدخل الى أوربا معارف العرب والأرقام الهندية التى نقلها عنهم . ثم ثارت الحمية فى أهل ايطاليا وفرنسا وجرمانيا وانجلترا فطلبوا الاندلس من كل فج عميق وتناولوا المعارف من أهلها . قال مونتكلا فى تاريخ العلوم الرياضية ولم يقم

من الأفرنج عالم بالرياضيات الا كان علمه من العرب مدة قرون عديدة . فمن جملة من نقل عنهم المعارف من أهل ايطاليا دوكريمونا قرأ علم الهيئة والطب والفلسفة بطليطلة وترجم عنهم المجسطى وكتب الرازى والشيخ الرئيس الى اللاتينية وليوندار البيزى نقل عنهم الحساب والجبر وأرنولد الفيلانوفى نقل عنهم الهيئة والطبيعيات والطب . وممن نقل عنهم من الانجليز راهب اسمه بلارد وآخر اسمه مورلى وآخر اسمه سكوت وكذلك روجر باكون الشهير فان ماحصّله من المعارف فى الكيميا والفلسفة والرياضيات انما استخلصه من كتبهم وقد اقتبس من أقوال الحسن فى البصريات ومثله فيتليو الذى اشتهر بالبصريات فانه أخذ كثيرا عن الحسن . ولما عرف ملوك الأفرنج قيمة معارف العرب أمروا بترجمة كتبهم ومنهم نقل شارلمان فردريك الثانى الجرمانى والفونس الثانى القسطلى . والخلاصة أن الأفرنج نقلوا عن العرب مما نقله العرب عن غيرهم أو استنبطوه بأنفسهم الفلسفة والهيئة والطبيعيات والرياضيات والبصريات والكيماء والطب والصيدلة والجغرافية والزراعة والفراسة وأخذوا عنهم عمل الورق والبارود والسكر والخزف وتركيب الاودية ونسج كثير من المنسوجات وأدخلوا منهم الى بلادهم دود القز وكثيرا من الحبوب والاشجار كالارز وقصب السكر

والزعفران والقطن والسباخ والرمان والتين ونقلوا عنهم دبغ الاديم وتجفيفه وقد استرد الانجليز هذه الصناعة بعد فقدها من الأندلس بجلاء العرب عنها ولا يزالون يسمون الجلود المدبوغة بها (موركو وكردوفان) نسبة الى مراكش وقرطبة

ولا تزال الالفاظ العربية مستعملة فى أكثر مباحث الافرنج الطبيعيه كالسمت والنظير والسموت والمقنطرات وأسماء النجوم والكحول والقلى والجبر والقطن والشراب والكيمياء وغيرها . ولولا لغة العرب لبقيت لغة أهل اسبانيا قاصرة كما كانت فأسماء أوزانهم وأقيستهم أكثرها عربى محرف كالقنطار والربع والشبر وكذلك أسماء قطع الماء ونحوها كالبحيرة والبركة والجب والكهف وغيرها كثير

فالمولدون كانوا فى زمانهم حلقة من سلسلة العلوم اتصلت بها علوم الاولين بالمتأخرين ولولاهم لفقد أ ك

قول جريدة مدرسة ادنبرج الكلية فى هذا ا

(انا لمدينون للعرب كثيرا ولو قال غيرنا خلاف ذلك فانهم الحلقة التى وصلت مدنية أوربا قديما بمدنيتها حديثا وبنجاحهم وسمو همتهم تحرك أهل أوربا الى احراز المعارف واستفاقوا من نومهم العميق فى الاعصار المظلمة . ونحن لهم مدينون أيضا بترقية العلوم الطبيعية

والفنون الصادقة النـافعة وكثير من المصنوعات والمخترعات التى نفعت أوربا كثيرا علما ومدنية) اهـ

أما تاريخ العلوم والآداب العربية من ابتداء الدولة العباسية الى الآن فانه ينقسم الى أربع مدد كبيرة

المدة الاولى تبتدى بخلافة أبى جعفر المنصور وتنتهى بمنتصف القرن الرابع تقريبا فهى نحو ٢٠٠ سنة وهى المدة التى صعدت فيها العلوم والآداب الى ذروة مجدها وأوج عزها وفاضت فيها ينابيع المعارف على جميع البلاد الاسلامية فأينعت جناها ودنت للقاطفين أفنانها . وفيها أشرقت شموس الائمة المجتهدين وأجلاء المحدثين وكبار علماء الدين وأئمة العربيـة وفحول الشعراء وأعاظم الكتاب ورجال الآدب وغيرهم من أساطين العلماء

المدة الثانية تتلاقى مع المدة الاولى فى نهايتها وتنتهى بسقوط الدولة العباسية سنة ٦٥٦ وفى هذه المدة ضعف أمر الخلافة العباسية باستيلاء الديلم والسلجوقيين على السلطـة ولم يكن هؤلاء الاعاجم يعرفون من قدر العلم كما كان يعرف الخلفاء من العرب ففترت الهمم بعض الفتور واقتصر كثير من أهل العلم على النظر فى كتب من قبلهم ووشوها بالحواشى . غير أنه نبغ فى هذه المدة عدد كبير فى كل علم وفن لاسيما

العلوم الرياضية والفلسفية وكان ذلك من أثر تلك الجَذْوَة التى اشتعلت فى المدة الاولى ولم يُخْمدها ضعف الخلفاء بل بقيت بعدهم زمنا يقتبس منها المقتبس حتى أطفأها التتار فى بغداد والبلاد التى استولوا عليها من آسية ثم دخلوا فى الاسلام فتألق بعض وميضها كما سبق

المدة الثالثة تبتدى بسقوط الدولة العباسية وتنتهى باستيلاء محمد على باشا على مصر سنة ١٢٣٠ وفى أول هذه المدة أعدمت المعارف العربية فى بلاد فارس وما وراء النهر وبقيت زاهية فى مصر قليلا بفضل الجامع الازهر كل هذه المدة وكذلك فى بلاد المغرب فى دولة السعديين والاشراف بعدهم وفى أواخر هـذه المدة كانت العلوم العربيـة فى آخر رمق من حياتها . ولكن كان يلوح فى اثناء ذلك الزمن بصيص من نور العلم والعرفان ثم يختفى فقد ظهر من أكابر العلماء أبو الفداء وابن خلدون والمقريزى وابن حجر والسيوطى وابن منظور صاحب لسان العرب والمجد صاحب القاموس وابن الوردى الفقيه

المدة الرابعة تبتدى باستيلاء محمد على باشا على مصر وفى هذه المدة أخذت المعارف والآداب تدب فيها الحياة وتنمو فى مصر والشام بفضل ما طبع وألف من الكتب المختلفة النافعة

امرؤ القيس

(المتوفى سـنة ٥٦٦ م)

هو امرؤ القيس بن حُجْر الكِنْدى وأمه فاطمة وقيل عَمْلك بنت ربيعه ابن الحارث أخت كُلَيب ومُهَلْهِل وقد ذكرها فى قوله

ألاهـل أتاها والحوادثُ جَمَّةٌ * بأنّ امرأ القيس بن عَمْلك بيثرا

أى أقام بالحَضَر وتَرَكَ أهْلَه بالبادية ومعنى (امرئ القيس) رَجُل الشِّدّة وقيل القَيس اسم صَنَم وقد وُلد ببلاد بنى أسد ولما شبّ تعلق بالشعر ونبغ فيه وهو أول من استوقف على الطُلول وشبّه النساء بالظباء والمَها وأجاد الاستعارة والتشبيه وكان أبوه ملك بنى أسد فعصفهم عصفا شديدا فتمالئوا عليه وقتلوه وقد كان طَرَد ابنه امرأ القيس لتشبيه بالنساء فى شعره وتنقُّله فى أحياء العرب يستتبع صَعاليكهم وذُؤبانهم وبينما هو يشرب الخمر بأرض اليمن بَلَغه قَتْل أبيه فقال ضيعنى صغيرا وحملنى ثَقَل الثار كبيرا لاصَحْوَ اليوم ولاسُكْر غدًا اليوم خَمْرٌ وغدًا أمْرٌ ثم انه استنصر ببعض أقْيال العَرَب ورؤساء القبائل ومازال يتتبع بنى أسد حتى ظفر بهم وحصلت له بعد ذلك وقائع كثيرة ثم مات بجبل يقال له عسيب ودفن بأنْقرة سنة ٥٦٦ م وأشهر شعره المعلقة الطائرة الصيت التى مطلعها

قِفانَبْكِ من ذِكْرَى حبيب ومنزل * بسقط اللوا بين الدَّخول فحَوْمل